طراز البردة

شرح محكم النسج مع ترجمة الامام البوصيري

بقلم

محمد كامل عبد العظيم

يطلب من دار الكتب الحديثة تليفون ٩١٦١٠٧
١٣ شارع الجمهورية بعابدين لصاحبها توفيق عفيفي عامر

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة صاحب السماحة العلامة
الشيخ محمد البشير الابراهيمي
قواه الله ونضر محياه

يقول ابن خلدون فى فصل « صناعة الشعر ووجه تعلمه » من مقدمة تاريخه الكبير بعد ذكره لشروط الشعر وتفصيله لأقسامه والمعانى التى يدور عليها : « ولهذا كان الشعر فى الإلهيات والنبويات قليل الإجادة فى الغالب ، لا يحذق فيه إلا الفحول ، لأن معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة لذلك » .

وكلامه هذا صادق فى كثير من الشعر الدينى والعلمى ، لأن حقائق الدين وحقائق العلم غير متفاوتة ، فلا يجد الشاعر فيها مجالا للمبالغة والتوسع وغيرهما مما يقوم عليه الشعر ويتفاوت فيه الشعراء ، ومبنى الشعر على الخيال والتخييل والمبالغة التى قد تنتهى إلى الكذب والإغراق والغلو والإحالة ، حتى قالوا : أعذب الشعر أكذبه ، والشعر لغة العواطف ، والشعراء يهيمون فى كل واد من أودية الخيال ، وقديماً قرنوا الشعر بالسحر ، لأن كلا منهما يعتمد على التخييل ، وجعل علماء المنطق الخطابيات والشعريات فى آخر أقسام

الحجة ، لأنهما ليسا فى قوة البرهان الذى لا ينقصه ، وغاية أمرهما إقناع السامع الذى يتأثر بهذا النوع من الكلام ، والدينيات حقائق لا يبدل منها الشعر ولا يغير ، والنبويات حظائر محوطة بآداب وحدود لا مجال فيها للمبالغة والإغراق ولا للتبذل والإسفاف .

والموضوع الذى يتناوله الشعر فى النبويات : السيرة ، والمدح ، والسيرة تاريخ وعلم ، والمديح النبوى أوصاف تمليها المحبة ، فمجاله أوسع المجالات من بين الإلهيات والدينيات والنبويات ما لم يجاوز الحدود الفارقة بين مقام الألوهية وبين مقام النبوة ، وعلى ذلك فقد قل المجيدون من شعراء المديح النبوى فى الملة الإسلامية على كثرتهم فى التاريخ الإسلامى .

وإذا استثنينا شعراء المديح فى العصر النبوى ، المنافحين عن الدعوة الإسلامية فى أول نشأتها « كحسان بن ثابت » « وكعب بن مالك » « وعبد الله بن رواحة » ، فأننا نجد إمام المادحين ومقدم كتائبهم ، وحامل لوائهم على الإطلاق الإمام البوصيرى . فقد فاق جميع من تقدمه ومن تأخر عنه إلى عصرنا هذا فى استحكام ملكة الشعر وفى سعة الخيال ، وفى الاقتدار على الوصف وفى العلم بدقائق السيرة وبالآداب التى تلزم لهذا الصنف من الشعراء ، وأصل ذلك كله صدق فى المحبة وتعلق بالجناب النبوى .

مقيد بآداب دقيقة لا يجوز للشاعر تعديها فى صعود ولا فى نزول لأن كليهما مزلقة ، ولكن البوصيرى مع طول نفسه فى المديح ومع أنه شاعر معه من الغلو والسبح فى الخيال ما مع الشعراء الفحول —

فانك لا تكاد تعثر له على سقطة فى المديح النبوى ولا على إسفاف ولا مبالغة يخرج بها عن الآداب المقررة فى شريعة ممدوحه العظيم فكل شعره ينطبق عليه قوله فى همزيته :

تتحلى به المسامع والأفو اه فهو الحلى والحلواء

ويكاد شعراء المديح يتواردون على شىء يجعلونه عمود شعرهم : وهو المعجزات ، وأكثرها يعتمد على أخبار الآحاد ، وبعضها يعتمد على رواة وجدوا قبل البعثة كالخوارق التى رافقت ميلاده ورضاعه وتربيته وصباه وحداثته إلى البعثة ، ولكن البوصيرى ينوه بتلك الخوارق بقوالب شعرية رائعة يكسوها من وشى الألفاظ ما يجعلك كأنك تشاهدها .

وشعر البوصيرى فى المديح فى غاية من المتانة والجزالة غنى بالخصائص الشعرية العالية ، وقد تناول مواضيع علمية يبرد فيها الشعر وينزل إلا عند البوصيرى كشعره السيرة النبوية ووصف رجالها وكوصف القرآن وإعجازه ووصف المتعامين عن هديه وكتحليله بعض العقائد الرائجة عند أهل الكتاب ، ونقضها بأسلوب بارع ومقارعتهم بالحجة فيها ، كعقيدة الفداء ، وعقيدة البداء ، فتجد فى شعر البوصيرى تحليلا لهذه العقائد وغيرها يجمع بين تحقيق العالم وصولة الجدلى ، وكل ذلك فى أسلوب شعرى من أروع ما يقرأ وأحلاه وكل ذلك من غير أن يفقد شعره الخصائص الشعرية العالية التى لا يكون الشعر شعراً إلا بها ، والبوصيرى مع تلك الخصائص التى امتاز بها شعره يعد فى طليعة علماء السيرة وعلماء الدين ، والمؤرخين للأديان ، والاختصاصيين فى تفاصيلها .

عيون قصائده التي طار بها ذكره وطال بها فى الشعر باعه ، وفاق بها الشعراء وغبّر فى وجوههم : قصيدة البردة ، وقصيدة الهمزية وقصيدته اللامية التي مطلعها :

إلى متى أنت باللذات مشغول

وقصيدته فى نقض بعض العقائد النصرانية وطالعها :

جاء المسيح من الإله رسولا

وقد طارت قصيدته « البردة » كل مطار ، واشتهرت أيما اشتهار وسارت مسير الشمس فى العالم الإسلامى من عهد الشاعر إلى الآن ، واشتغل بها الناس إلى درجة الافتتان ، وأصبحت عندهم فى مرتبة التقديس ، وانتحلوا لأبياتها من الخواص ما انتحلوه قبلها للآيات القرآنية ، فأصبحت تقرأ فى تشييع الجنائز ، وتكتب أبيات معينة منها للاستشفاء من أمراض يعينها ، فضاع علم ما فيها من الشمائل النبوية والمواعظ والنصائح البليغة ، والتصوير البديع لأصحاب — محمد صلى الله عليه وسلم — فى جهادهم تحت أنقاض الخرافات ، وضاعت تلك البلاغة والصور الشعرية فى ظلمات الأوهام والتصورات الباطلة .

ولم ترزق قصيدة من قصائد الشعراء الممتازة بخصوصية مارزقت هذه القصيدة من اعتناء العلماء بها فى جميع العصور فشرحوها شروحاً متعددة وخصصوا بالشرح ما فيها من فنون الشعر البديع ، وعارضها كبار الشعراء وخمسوها وشطروها ، وحسبك أن سابق شعراء هذا العصر محمود سامى البارودى عارضها بقصيدة على بحرها ورويها ،

وأن أمير الشعراء بلا منازع أحمد شوقى عارضها بقصيدته المشهورة التى سماها « نهج البردة » .

* * *

كان آخر من تصدى لشرحها صديقنا الأستاذ محمد كامل عبد العظيم .

حمل صديقنا المذكور حبه للنبي صلى الله عليه وسلم فجعل شرحه لهذه القصيدة عنوان تلك المحبة ، ورأى أن مديحه صلى الله عليه وسلم والناشرين لأوصافه وشمائله هم محل رضاه ، فأراد أن يدخل فى زمرتهم التماساً لرضاه ، فجعل وسيلته إلى ذلك شرحه لهذه القصيدة التى يعتقد هو ويعتقد كل مسلم أنها مديحة متقبلة من قائلها بآية أن الله ألقى عليها هذا القبول الخارق للعادة ، حتى أن حفاظها وتلاتها يعدون بالملايين وقد صدر شرحه لها بمقدمة فى ترجمة البوصيرى الشاعر ومكانته بين المادحين ومكانة قصيدته من شعر المديح ، وعناية الناس بها ، وكثرة شروحها وذكر ما انتهى إلى علمه من تلك الشروح ، وقد نقل عنى فى تلك المقدمة أنى أخبرته بأن ممن شرحها الإمام عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور ، وأن ممن شرحها فى قريب من عصرنا هذا العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسى جد الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الثانى قاضى الجماعة بتونس سابقاً ، وشيخ الجامعة الزيتونية بها الآن . وشارح ديوان بشار بن برد ، وأنا أزيد على ما نقله عنى أن شرح الشيخ ابن عاشور مطبوع من عشرات السنين ، أما شرح

ابن خلدون فقد ذكره ذو الوزارتين « لسان الدين بن الخطيب » فى ترجمته لصديقه ابن خلدون فى كتابه « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » بعد أن ذكر مؤلفاته فقال ما معناه : وهو الآن يشتغل بشرح البردة شرحاً دل على انفساح ذرعة فى العلوم . ولكنا لم نقف على أثر لهذا الشرح مع كثرة بحثنا عنه ، ولعله يوجد فى بعض الخزائن الموروثة فى المغرب الأقصى .

* * *

قرأت المقدمة وعدة ملازم من شرح صديقنا كامل عبد العظيم يوسف فرأيت طريقته فى هذا الشرح من أمثل الطرق فى التأليف فى عبارة سهلة واضحة ، وقصد محمود فى تحليل الألفاظ وبيان النكت وتوضيح المعانى والتزام الجرى على السنن الذى يلتئم مع أذواق أهل هذا الزمن .

بلغ الله آمال صديقنا الشارح وسلكه فى زمرة المحبين الصادقين للجناب النبوى ، وحفظه من غوائل الغلو والتقصير وجزاه عن نيته فى هذا العمل ووفقه إلى التمادى فى مثل هذا العمل الجامع بين الأدب والدين وجعله من الداعين إلى الله وإلى دينه وإلى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . اللهم آمين .

مصر الجديدة فى :

١٠ من شعبان المعظم سنة ١٣٧٧ هـ

محمد البشير الابراهيمى
شيخ العلماء